

بداية الأفلمة الروائية في السينما الأمريكية الصامتة - كوخ العم توم بين الرواية والفيلم -

د/بومسلوك خديجة

جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم (الجزائر)

في عام 1863م، التقى الرئيس الأمريكي أبراهام لينكولن Abraham Lincoln^{*}، في واشنطن، الروائية هاربيت - بتشر ستو^{**} Harriet Beecher-Stow فحيها قائلاً: "إنك المرأة الصغيرة التي أشعلت هذه الحرب الكبيرة"¹.

يحمل هذا الكلام كثيراً من الحقيقة، وهذا إنطلاقاً من أن رواية كوخ العم توم عملت على توحيد شعور الأمريكيين الأحرار وخصوصاً الشماليين ضد العبودية، فموضوع هذه الرواية يسرد قصة العبد الأسود المسن (العم توم) الذي لم يفر أبداً من عبوديته رغم توفقه للتحرر، بل يستقبل الموت في صبر و جلد على يد المتوحش

^{*} أبراهام لينكولن: Abraham Lincoln (1809م-1896م) الرئيس 16 للولايات المتحدة الأمريكية بالفترة 1861م-1865م، يعد من أهم رؤسائها، إذ قامت في عهده الحرب الأهلية الأمريكية بعد انفصال 11 ولاية، فأعادها إلى الحكم المركزي بقوة السلاح كما كان لينكولن صاحب قرار إلغاء الرق في أمريكا عام 1865م.

^{**} هاربيت بيتشر- ستو: Harriet Beecher-Stow (1811م-1896م) ولدت في كنتكت لأبها لليمان بيتشر أحد المبشرين، إتجهت إلى التأليف والتعليم و التربية الدينية و المشاركة في الحركات النسائية، تلقت هاربيت دراسة متعددة الوجوه الثقافية، في مجالات الدين و التاريخ والعلوم، حيث مارست التعليم و تزوجت من كالفن ستو أحد كبار الأساتذة المعنيين بالشؤون الدينية، و من أبرز دعاة تحرير العبيد. سنة 1843م بدأت كتابة القصة و ظهر كتابها الأول زهرة أيارو سنة 1850م صدر قانون العبيد الفارين الذي بعاقب كل من يساعد عبداً هارباً، ما أثار دعاة التحرر، فنشرت رواية كوخ العم توم خلال 1859م في إحدى الصحف المعادية لنظام الرق، و كان للرواية تأثير كبير، خاصة عندما صدرت كتاباً سنة 1852م و قد بيع منها 03 آلاف نسخة في اليوم الأول لصدورها و أكثر من 03 مئة ألف نسخة في العام الأول.

¹- بيتر هاي، موجز تاريخ الأدب الأمريكي، تر: هيثم علي حجازي، دار الميسرة للنشر والتوزيع و الطباعة، ط1، الأردن 2003، ص 84.

سيمون ليغري. وقد كان لهذه الرواية دور دعائي وسياسي كبير، إذ أسهمت في اتساع الحملة التي قام بها الشمال لمناهضة العبودية في الجنوب، وهو الأمر الذي تسبب في نشوب حرب أهلية.

و السبب الأساس في شهرة رواية كوخ العم توم أنها تنطلق من صميم الواقع الذي ساد الولايات المتحدة في المنتصف الثاني من القرن 19م، والذي كان محوره الإسترقاق (الإستعباد) و المتاجرة بالعبيد. لقد نقت هاريت بيتشر- ستو على هذا الواقع في روايتها، وثارت على تشريع الرق والسماح به في القوانين، إذ علقت قائلة: "إن التحدث عن مشاهدة الدم الوحشية يدمي فؤاد الإنسان ويؤذيه... ومع ذلك فإن تلك الفضائع والمظالم إنما تفترق تحت ظل القوانين وتحت سمع السلطة"². لقد صورت في روايتها أطفالا يباعون بمعزل عن أمهاتهم، وعبيدا يعاملون مثل سلع تجارية، وترك عملها الروائي أثرا كبيرا في الأدب والتاريخ الأمريكيين، وتجلت رواية كوخ العم توم كأيقونة مأساوية لأحوال العبيد، والقسوة التي عوملوا بها.

1/ موضوع الرواية:

تحدث هذه الرواية عن العبودية ومعاناة الزوج، وكيف استطاعوا بعزيمتهم وإرادتهم تنفيذ آمالهم الكبيرة وأحلامهم الطموحة في التحرر والانعقاد. ويدور محورها حول شخص يدعى (توم)، و هو عبد لسيدة (ميستر شيلي)، إذ كان مخلصا، ووفيا، ومتقنا في آدائه، وإدارة المزرعة، ومحبوبا من الجميع، الذين راحوا يحترمونه، ويقدرونه لثباته وحرصاته، ولرعاية حسه، وقد قرّر سيدة، في يوم من الأيام أن يبيعه - رغما عنه - لتاجر من الجنوب يدعى (هيلي) على أن يسوي بذلك دينا كان عليه، فوافق هيلي شرط أن يأخذ جيم ابن إليزا معه. وكان للسيد شيلي ابن اسمه جورج؛ أحب العم توم كثيرا، ولم يعلم بإتمام هذه الصفقة.

²- هاريت بيتشر- ستو، كوخ العم توم أو حياة المعذبين على الأرض، ترجمة ومراجعة النص العربي: د سليم خليل قهوجي، دار الحيل، ط2، بيروت 2005، ص 6.

لما سمعت إليزا (رفيقة توم في العبودية)، بخبر بيعه، قررت الفرار بعد أن عرضت عليه مرافقتها، غير أنه تمنع وفاء وإخلاصاً لسيدته، إلا أن هذا لم يمنع إليزا، وابنها جيم من الهرب بعد يد المساعدة التي قدمتها لهما عائلة عرفت بمعاداتها للعبودية. وبيع توم مرة أخرى من المشتري هيلي إلى عائلة سانت كلير البرجوازية، حيث نشأت بينه وبين صغيرة الأب سانت كلير علاقة محبة ورعاية وحنان توطدت بسرعة جعلت الصغيرة إيفا تتعلق روحاً بتوم. أما إليزا، فقد عبرت رفقة ابنها النهر المتجمد، متحدية بذلك كل الصعاب، حيث وصلت بشق الأنفس إلى بيت لقيت فيه كل الرعاية، والتقت زوجها جورج؛ الفار من العدالة في ذلك الوقت، وكانت وجهتهما الجديدة رفقة ابنهما هي: كندا.

ازداد توم والطفلة إيفا تقارباً إلى درجة أن هذه الصغيرة كانت تراودها أحلام بتحرير العبيد، والعيش معهم في مكان بسعادة وحرية، وكان توم يضحك لمثل هذه الأحلام، فإيفا الصغيرة الملاك النقي لم تكن تعلم ما معنى العبودية ... ومرت الأيام واشتد بإيفا المرض، فقلق عليها والدها سانت كلير، وكذلك توم، الذي كان يدعو المسيح كي يشفيها (توم كان متديناً، ويحب المسيح كثيراً)، وبعد مرور ليال عصبية وقاسية على مرض الطفلة، تموت هذه الأخيرة، تاركة فراغاً كبيراً مرفوقاً بابتسامة علت محياها، ورجاء من أبيها كي يحزّر العم توم.

حزن سانت كلير كثيراً على فراق صغيرته، ولما هم بتحقيق أمنيته الأخيرة (تحرير العم توم)، تدخل القدر قاسياً، وقتل سانت كلير خطأ في محاولة التفريق بين متشاجرين. طلب توم من أوفيليا ابنة عم سانت كلير العمل بوصية هذا الأخير، لكن تولي زوجته ماري الأمور من بعده حال دون ذلك، خصوصاً وأنها تكره الزنوج، فرفضت تحرير توم، وباعته مرة أخرى.

قررت كلو (زوجة توم) العمل توفيراً للمال، في محاولة لتحرير زوجها وعتقه، وهذا، بموافقة السيد شيلبي، الذي ندم كثيراً على صفقة بيعه، إلا أن القدر سبق مرة ثانية، وبيع توم لسيد طاغية سيئ الطباع من الجنوب. وهناك تعرض توم

لقمة الوحشية والضرب والتعذيب حتى الموت، و هذا في بيت مالكة الجديد سيمون ليغري. ورغم تدين توم وإتقانه لعمله إلا أنه لم ينجو من التعذيب، وأظهر صبرا، إدراكا منه بأن الرب سيباركه ويجازيه، ولكنه - أخيرا - لزم الفراش من شدة القساوة والضرب المبرح. ولما هم جورج شيلبي ابن سيده الأول بتحريره، بعد أن بحث عنه مطولا، وجده يصارع سكرات الموت الأخيرة. يحزن جورج كثيرا لموته ويقوم بدفنه، وبعد أن يعود إلى مزرعته، يستدعي كل خدمه ويقوم بتحريرهم، لأنه أقسم على قبر توم أن لا يمتلك عبدا بعد الآن، وطلب من زوجته وأبنائه أن يجعلوا كوخ العم توم نصبا تذكريا لكي يسير على نهجه الزوج كلما زاروه..

يدور هذا العمل الروائي حول فكرة جوهرية تتمثل في وفاء العبد لسيده رغم وحشية وقساوة المعاملة ووضع العبودية والاسترقاق. وتتمحور تيمة هذه الرواية حول الواقع الاستبدادي، والصورة المحزنة لأحوال العبيد، والقساوة التي كانوا يعاملون بها من طرف الرجل الأبيض الجائر، عديم الإحساس. ويتقاطع في هذه الرواية محوران أساسيان، أولهما: سرد مسار العم توم منذ بيعه للسيد هيلي من السيد شيلبي إلى استلام جثته من ابنه جورج، وثانيهما: سرد معاناة إليزا، التي رفضت أن تباع هي وابنها، وقاومت لكي تصل إلى زوجها جورج، الذي رفض بدوره فكرة الاستعباد وبيع الإنسان للإنسان: "تقولين سيدي، من الذي جعله سيدي؟ ومن أعطاه الحق في امتلاكه؟... أنا إنسان بقدر ما هو إنسان، بل إنني إنسان أفضل منه..."³.

إن نقطة الانطلاق في الرواية كانت البيت الصغير الذي كان يعيش فيه توم و زوجته كلو وأبنائهم، لكن الوجهة كانت مختلفة حيث خضع توم لأوامر سيده شيلبي، أما إليزا فقد رفضت واتجهت نحو الحرية في طريق محفوف بكل المخاطر.

³- هاريت بيتشر- ستو، كوخ العم توم، ص 30.

لقد صورت هذه الرواية، موازاة مع التيمة الأصلية، موضوعات ثانوية ساهمت في دفع مسار القصة، تمثلت في أطفال يباعون بمعزل عن أمهاتهم، وعبيد يعاملون كسلع تجارية، وأشخاص من الأحرار رجالا ونساء، ينظرون إلى العبيد على أنهم مخلوقات دنيا وأنهم أروياء وسيئون لا يستحقون الحياة. وأعمق ما في الرواية دلالتها الإنسانية من حيث تصوير نماذج بشرية متعددة من أشخاص تأخذهم الرأفة والرحمة بالعبيد، وآخرون يتاجرون بهم.

و اتسع الحدث الروائي - مكانيا - ليشمل كثيرا من الولايات الأمريكية، وكأني بمأساة توم وإليزا تلخص واقع العبودية على كل الأرض الأمريكية في فترة ما قبل الحرب الأهلية، التي فصلتها إلى شمال متحرر من عقدة السواد، وجنوب تواق للانعتاق من رتق العبودية. إن توم المسافر بمأساته الأرضية إلى عالم الملائكة، كان قد قطع مسافات جغرافية بين ولايات مثل: كنتاكي، أوهايو، واشنطن، نيو أورليونز... وقارب بين مآسي ومعاناة العبيد على هذه الأرض، وهذا ما أحسن أبراهام لينكولن تأويله على المستوى السياسي قبيل الحرب الأهلية، التي حررت العبيد إذ قال - كما أشرنا سابقا - ".. المرأة الصغيرة التي أشعلت حربا كبيرة".

تقع أحداث هذه الرواية مع بدايات القرن 18م، وإن لم تشر الكاتبة صراحة إلى تاريخ محدد بعينه، فإن وجود سانت كلير، الذي كان محبا للسود لهو دليل على تطور النزعة الإنسانية التي ترفض العبودية وتدعو إلى التحرر، وكأني بالضمير الأمريكي يستيقظ لصالح قضية هي جوهر حقوق الإنسان. إن أحداث القصة التي تدور حول تحرير العبيد حددت زمنها من تلقاء نفسها، ذلك أن الأحداث في هذا العمل الروائي تواكب صدور قانون منع مساعدة العبيد الفارين سنة 1850م، وهو ما أثار حفيظة دعاة التحرر، ومن هنا، فإن الحدث الروائي يتموقع - زمنيا - قبيل الحرب الأهلية الأمريكية.

أما عن الزمن داخل متن الرواية، فيمكن القول بأنه زمن معاناة كل العبيد الذين لا يعرفون غير زمن العبودية والاسترقاق، لأن القن لا يمكنه أن يفصل

جسده عن الأرض، و السيد ينظر إليه كجزء من ترويض الأرض، و لا يمكن للعبد أن يتحرر من زمن الاستغلال هذا؛ لأنه يجر أزمته أسلافه العبيد وراثيا، وما لحظة السعادة التي لامست زمن توم البائس سوى ومضات تشبه الحلم، أطلقها كل من الصغيرة إيفا والرحيم سانت كلير.

ظهر توم في هذا العمل شبيها بمكان الرواية، يحمل فوق ظهره زمنا استرقاقيا ويحملة، هو أيضا، زمن أسود كلون بشرته يرافقه أينما حل وارتحل، وبتوسع زمن معاناته المرتبط بجغرافيا المكان، تكبر المأساة تحت وطأة الانتقال من مكان لآخر في رحلة اتجاه قدرية مجهولة يوشحها الموت لتتخلص الروح الطيبة من آلام جسد الفناء.

2/ فيلم كوخ العم توم لإدوين بورتر 1903م:

ظهرت رواية كوخ العم توم ل: بيتشر ستو، مؤلفة بقوة في الانطلاقة الأولى للسينما بالولايات المتحدة، معلنة بذلك عن توشيح السينما بخاصية هُوتية أمريكية تنطلق مما يعتبره الأمريكيان عظمة الحرب الأهلية التي أوجدت الأمة الأمريكية، وأسطورة الجنوب الذي، بفعل تحرر عبيده، وسم الفرد الأمريكي بخاصية الإنسانية و العدالة. ولم تمض العشرين الأوليين من القرن المنصرم، حتى كان هذا العمل الروائي قد أخذ نصيب الأسد من العروض السينمائية، إذ ظهرت النسخة الفيلمية الأولى لهذه الرواية عام 1903م من المخرج الأمريكي الكبير إدوين بورتر Edwin Porter في معامل إديسون السينمائية، وظهرت بعدها بثلاثة أشهر نسخ أخرى في شركة سيجمونت لوبين Sigmund Lubine في نفس السنة، وتلاهذين الفيلمين عرضان آخران من شركتي: باتي Pathé، و فيتاجراف Vitagraph عام 1909م.

*** سيجمونت لوبين Sigmund Lubine: شركة إنتاج أفلام أمريكية قديمة، ظهرت مع بدايات السينما.

**** فيتاجراف La Vitagraph Company of America: شركة إنتاج سينمائية أمريكية أسست بنيويورك عام 1896 من طرف جيمس ستيوارت بلاكتون و ألبرت سميث، وبيعت لوارنبروس عام 1925.

واستمرت هذه الرواية تفتح شهية الأفلمة لصناع السينما حيث أنتجت نسخ فيلمية جديدة أخرى عام 1913م من أستوديو يونيفارسال**** Universal، إضافة إلى نسختين جديدتين عام 1918م من باراماونت***** Paramount، وفيموس بليرز – لاسكي Famous Players-Lasky⁴.

تم إنتاج فيلم كوخ العم توم Uncle Tom's Cabin ل: بورتر Edwin Porter عام 1903 في شركة إديسو Edison، وكان أحد أكثر الأفلام تكلفة في تلك الفترة، حيث أبقى على الخطوط الرئيسية للقصة نفسها، بينما عارض روح الرواية في تقليص الوحشية والعنف الممارس ضد الزوج والعبيد في لقطات فيلمه. يظهر بورتر في المشهد الافتتاحي مكانا مريحا يعيش فيه العبيد، وهم يعملون بدون إظهار لوحشية العبودية، فبيت العم توم كان من الخشب المتين مع مدخنة حجرية محاطة بسيج⁵، والزوج يلبسون ثيابا لائقة، وزوجة العم توم (كلو) ترتدي ثوبا أبيض مع غطاء للرأس، وضيقتهم إليزا تضع على رأسها هي الأخرى قبعة بيضاء فضفاضة. لقد أظهرت العديد من المشاهد السود، هم يشربون بحماس، ففي المشهد الخامس من الفيلم، يقدم مجموعة من الزوج يجلسون على رصيف الميناء برفقة نساء وأطفال، فتتحول تلك الصحبة إلى عضوية راقصة وغناء وتصفيق طائشين⁶. يشتري سانت كلير توم فتتوطد العلاقة بين العم توم وسانت كلير وطفله إيفا، وعند وصولهم إلى المنزل (مزرعة سانت كلير) يستقبلون بالرقص من طرف العبيد، وهم يلوحون بقبعاتهم ويقفزون بحماس، وسرعان ما يعين توم كرئيس للخدم

**** يونيفارسال Universal: شركة إنتاج سينمائي أمريكية عملاقة تأسست عام 1915.

***** باراماونت Paramount: أحد أكبر شركات الإنتاج السينمائي الأمريكي التي تأسست عام 1916، وهذا بعد اندماج كل من شركة فاييموس بلايرز Famous Players و جيسي لاسكي Jesse L. Lasky بتخطيط من مسير بارامونت الرهيب أدولف زوكور Adolph Zukor.

⁴- ينظر: إدوارد كامبيل، هوليوود وأسطورة الجنوب الأمريكي، تر: زياد ينم، منشورات وزارة الثقافة- المؤسسة العامة للسينما، دمشق، 2003، ص 56-57-58.

⁵- ينظر: فيلم كوخ العم توم، إدوين بورتر 1903، اللقطة (37ثا)

⁶- ينظر: فيلم العم توم، اللقطة (30ثا و40ثا)

وتنشأ علاقة متينة بينه وبين الطفلة إيفا، لكن هذه الأخيرة تموت متأثرة بمرضها الذي يحزن الجميع.⁷

يظهر البيض في هذا الفيلم على أنهم أناس كرماء، وهم يهتمون بشكل مفرط بالسود وحالهم، ففي أحد المشاهد، يرافق العم توم سيده سانت كلير إلى بار كبير.⁸ ويدعوه هذا الأخير لمشاركته بعض الكؤوس من الشراب أثناء حزنه العميق على صغيرته الغالية إيفا. يمحور المخرج قصة مقتل سانت كلير في حانة انطلاقاً من شجار بين هذا الأخير ورجل رمى قدح الخمر في وجه توم، الذي كان يسامر سيده، بعكس قصة الرواية. وبعد موت سانت كلير، يباع العم توم في المزاد لصالح ليغري، الذي يسلط عليه شتى أنواع العذاب والتنكيل التي تنهي حياته، هذه النهاية التي يربطها المخرج برموز النضال الوطني الأمريكي ضد العبودية والرق، وتظهر جليلة في الموت الملائكي لـ توم، وهو يرى صورة جون براون ***** Joh Brown يحتضن طفلاً أسوداً صغيراً.⁹ وبعدها تظهر مشاهد الحرب التي تنتهي بصورة للرئيس الأمريكي لينكولن برفقة زنجي يتضرع ويتوسل إليه، مع نهاية جاءت ككنائية عن اتحاد الأمة الأمريكية في شكل جنديين من الشمال والجنوب وهما يتصافحان.¹⁰

قدم إدوين بورتر هذا الفيلم سنة 1903م في مدة لا تتعدى 20د، وقد قام بأداء دور العم توم ممثل أبيض تمّ دهن وجهه باللون الأسود، لأنه كان محظوراً على السود الوقوف أمام الكاميرا في دور البطولة خلال تلك الفترة، اللهم إلا الظهور في بعض المشاهد كخلفية ترتبط بديكور المشهد. يعد هذا الفيلم أول رواية أمريكية مؤفلمة اختزلت في أربع عشرة مشهداً.

⁷- ينظر: م ن، اللقطة (5دو 03ثا)

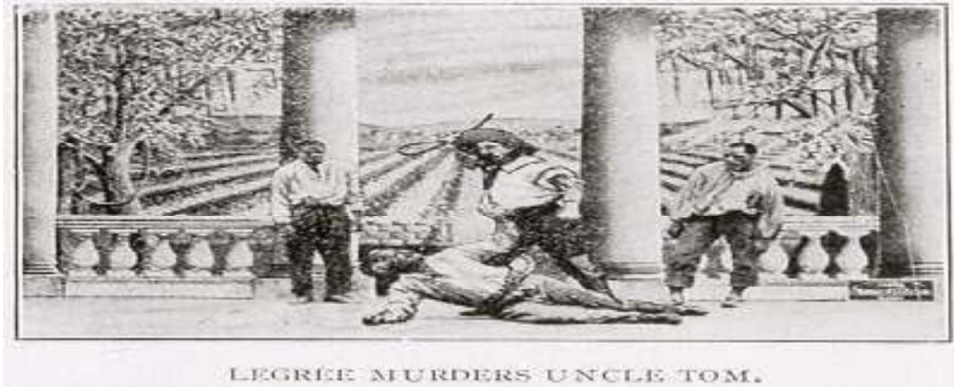
⁸- ينظر: م ن، اللقطة (7د)

***** جون براون: هو مناضل أمريكي في سبيل حرية العبيد عمل على مكافحة التمييز العنصري، وضمان العدالة للسود.

⁹- ينظر: فيلم العم توم، اللقطة (17د و 52ثا)

¹⁰- ينظر: فيلم كوخ العم تولادوين بورتر، اللقطة (18د و 56ثا)

البطاقة التقنية لفيلم كوخ العم توم لإدوين بورتر:



ملصقة الفيلم

المخرج: إدوين بورتر

السيناريو: إدوين بورتر عن رواية كوخ العم توم لهارييت بيتشر- ستو

المنتج: إديسون

مدة العرض: 19 د و 03 ثا

تاريخ العرض: 1903

نوع الفيلم: صامت

لون الفيلم: أبيض و أسود

تحليل الفيلم:

ساير الفيلم فكرة إلغاء نظام الرق في الجنوب الأمريكي، منددا بالعبودية واحتقار الرجل الأبيض للرجل الأسود، كما في رواية بيتشر- ستو. والمتتبع لهذا الفيلم، يلمس خط حدث معاناة العم توم في كل مشاهد الفيلم، بعكس قصة تحرر إليزا، التي أشار إليها المخرج كومضات فقط، مفضلا تتبع مسار سردي واحد بعكس الرواية.

قدمت بيتشر- ستوروايتها كوخ العم توم في أربعة وثلاثين فصلا، ولخصها إدوين بورتر في فيلم مكون من 14 مشهدا، ويصعب على المتلقي الذي لم يقرأ الرواية أن يستوعب الفيلم، وهذا يرجع إلى عدم استيفاء شروط الأعراف السينمائية لدى المتلقي في فترة ما قبل سينما "جذب الانتباه". لقد انتقى المخرج من الرواية الخطوط العريضة لمسار الحدث، وأظهرها في شكل موجز؛ لأن اللغة السينمائية - وقتها - لم تكن قد تطورت بعد، فـ بورتر، وعبر هذا الفيلم، الذي يعد اللبنة الأولى لإرساء خاصية السرد السينمائي، حاول تتبع بعض المشاهد التي أنعشت دينامية اللقطات، مثل: هرب إليزا على صفائح الجليد، هي وابنها في شكل مطاردة، وكذا مشهد الباخرة التي تطفو فوق النهر ليلا؛ لتنقل العم توم. ولقد أعطى المخرج فسحة كبرى لرقص الزنوج وغنائهم في الفيلم بحثا عن تنشيط لقطي ومشهدي إضافي يتوازى مع موجز الرواية الذي اختاره لفيلمه، ومزجه ببعض المشاهد من الخدع البصرية البدائية بحثا عن تشويق أكثر.

استخدم بورتر مجموعة من لوحات النص المكتوب للفصل بين المشاهد، موضحا فيها فكرة المشهد، بحيث إنها بينت لنا مجموعة من الإرشادات الكلامية المقتبسة من الرواية، والتي تشكل نصا توضيحيا مكتوبا يساعد على فهم المشهد المصور في كليته. ولعل هذا الاستخدام يبرر آنذاك فقر الوسائل السينمائية التي لم تستطع جلب سرد بصري للشاشة السينمائية بعيدا عن السرد الكلمي الذي يميز السرد الروائي، في زمن كانت فيه السينما تفتقد لدعامة الصوت التي حلت هذا الإشكال في مرحلة النطق السينمائي. وأمام هكذا فيلم، فإننا نتصور بأن المتلقي السينمائي الجيد آنذاك لم يكن لديه حل سوى قراءة الرواية، ومن هنا، فإن هذه اللوحات المكتوبة تنطبع في عين وذاكرة المشاهد بخاصيتين:

- دليل كلمي يوضح عناوين المشاهد الفيلمية المصورة؛

- دليل كلمي ينعش ذاكرة المتلقي، الذي قرأ الرواية.



اللقطة 1-1ثا (كوخ العم توم أو حياة المعندين) اللقطة 2-8ثا (إليزا تتوسل توم للهرب)



اللقطة 4-2د و 24ثا (هروب إليزا)

اللقطة 3-53ثا (خداع تاجر الرقيق)



اللقطة 6-4د و 34ثا (السباق بين روبرت ولي ناتشين)

اللقطة 5-3د و 13ثا (التقاء إليزا بجورج هاريس)



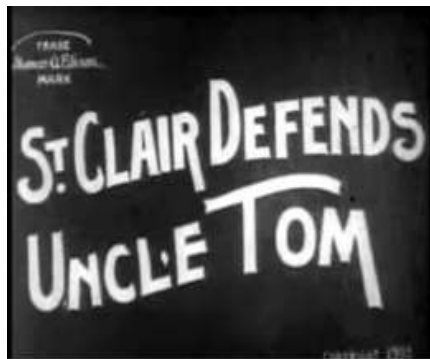
اللقطة 8-6 دو 51 ثا (الترحيب بسانت
كلير، إيفا، العممة أوفيليا و العم توم)



اللقطة 7-5 دو 32 ثا (إيفا المنقذة)



اللقطة 9-8 دو 39 ثا (توم وإيفا في الحديقة)



اللقطة 11-11 دو 33 ثا (سانت كلير
يدافع عن العم توم)



اللقطة 10-10 دو 47 ثا (موت إيفا)



اللقطة 13-14 و 15 ثا (توم يرفض جلد إيملين)



اللقطة 12-12 و 38 ثا (بيع عبيد سانت كلير في المزاد العلني)



اللقطة 15-17 و 38 ثا (مشهد موت توم)



اللقطة 14-16 و 6 ثا (علامات الموت تصادف سانت كلير و العم توم)

صورت كل مشاهد الفيلم (لا أقول هنا لقطات لأننا في زمن المجاورة المسرحية) داخليا في استوديوهات إديسون، حيث لم تكن السينما آنذاك قد اكتسبت لغتها السينمائية بعد، إذ إننا لا نجد منطقاً في سرد الأحداث وربطها أثناء مشاهد الفيلم، كون مفهوم السيناريو لم يكن قد تطور في هذه المرحلة من زمن السينما الصامتة، ولم تكن السينما قد عرفت أبعادها الجمالية والتقنية من حيث

اللقطات وترتيبها في سلم مونتاجي، ولم تتحرك الكاميرا في هذا الفيلم وظلت ثابتة على طول مشاهدته، إلى درجة أن المشاهد يشعر وكأنه أمام عرض مسرحي مصور. وقد تزامن عرض هذا الفيلم مع عروض أفلام ميليس الفانتازية والعجائبية وعلى رأسها فيلم رحلة إلى القمر 1902م الذي جال أرجاء الولايات المتحدة الأمريكية وأنشئت له صالة عرض دائمة في لوس أنجلوس، وكان جورج ميليس قد اشتهر بفن الخدع السينمائية، وأول من أدخل السيناريو (القصة) إلى الفيلم. ويبدو أن إدوين بورتر قد استفاد كثيرا من تجارب ميليس في هذا المجال، إذ نجده قد استخدم في فيلمه تقاليد المشهد المسرحي في تتابع المشاهد ومجاورتها من فن المسرح مع استخدام الخدع السينمائية أيضا في بعض مشاهد فيلمه، مع فارق جوهري يتمثل في أنه أول من أفلم الرواية وأدخل عنصر السرد البصري بشكل بدائي.

قسم بورتر فيلمه إلى مجموع مشاهد اتسمت بطول لقطاتها، ووحدة اللقطة التي تجلت في مشهد كبير بزاوية رؤيا كاميرا وتبئرها (la focalisation) نحو فضاء مفتوح على زاوية 180°، فكل المشاهد جاءت في لقطات جماعية وطويلة يتجاوز طول اللقطة منها – المشاهد -الدقيقتين إلى ثلاث. ويرجع هذا إلى خاصية المسرحة التي أشرنا إليها سابقا، لأن هذه المرحلة اتسمت باستفادة الفيلم من حقول الصنعة المسرحية: تمثيلا، ديكورا، وإخراجا. لقد كان التصوير يتم داخليا في الأستوديو، لأن الأفلام اعتمدت الكادراج الثابت كعين للمشاهد.

كان التمثيل يقترب روحا من تمثيل المشاهد المسرحية، إن في حركات الممثلين (تشكيلهم الحركي)، أو في إيماءاتهم، وحتى في آداءهم الذي لم يخلو من الطابع الدرامي الذي طغى بدوره على أداء الممثلين، وحتى دخول وخروج الممثلين من الكادر كان يقارب من كواليس إطار الركح المسرحي. وكان الديكور كذلك في هذا الفيلم مصمما بطريقة توجي إلى الديكورات المسرحية التي تتغير من مشهد لآخر، وقد

جسد في جملة من الجداريات المرسومة بأسلوب واقعي والتي تقترب من سينوغرافيا المسرح.

واتباعا لأسلوب ميليس السينمائي المعتمد على الخدع البصرية (letuquage)، فإن بورتر استخدم الكثير منها في فيلمه آنذاك، وهذا رغم بساطتها وسذاجتها قياسا لوقتنا الحاضر حيث يتم تجسيدها عبر الأنفوغرافيا*****، التي تقدم الفيلم على الشاشة بصورة ساحرة وافتراضية يصعب في بعض المرات التصديق بأنها صورة غير حقيقية نظرا لصفائها وواقعيتها.

استنجد إدوين بورتر بالحاجب le cache ، كتقنية وخدعة سينمائية، والحاجب هو عبارة عن إظهار صورة فوق صورة أخرى سواء كانت ثابتة أو متحركة (وتظهر كفجوة في الصورة الأصلية – الكليشيه - وهي تحمل صورة أخرى، في شكل قناع قزحي). والمشاهد التي وظف فيها المخرج هذه التقنية كانت لحظة موت إيفا حيث استخدم تكنيك الظهور والاختفاء عندما نزل الملاك وأخذ الفتاة الصغيرة (لقطة1)، كما وظف هذه الخدعة كذلك في المشهد الأخير حيث كان العم توم يصارع الحياة والموت مبينا مجموعة من الصور الفوتوغرافية غير المتحركة عن طريق حجب بعض الجهات من الكادر لإظهار المستقبل والتطلع إلى المصالحة بين الرجل الأبيض و الرجل الأسود (لقطة2)، (لقطة3).

***** الأنفوغرافيا: هو علم جديد ظهر في ثمانينيات القرن الماضي، يعمل على خلق و تشغيل الصور الرقمية عبر الكمبيوتر.



لقطة 2- 18د 12ثا



لقطة 1- 11د 22ثا



لقطة 3- 18د 29ثا

و قد وظف المخرج بعض الخدع السينمائية مثل تقنية البرق الذي أضاء البحيرة، معتمدا لعبا ورقية جسدت شكل باخرتين طفتا فوق بركة مائية وراح يخرج منهما دخان في جويشير إلى الشتاء ولياليه الباردة (لقطة1)، واستخدم أيضا في هذا المشهد ديكورا مرسوما على شكل جدارية يوحي إلى الطبيعة المحيطة بتلك البحيرة (لقطة2) والتي تصب في بحر ستقطعه السفينة لتصل إلى الضفة الأخرى.



اللقطة 2-5د15ثا-



اللقطة 1-4د50ثا-

كما استعمل المخرج في اللقطات الأولى من الفيلم تقنية أخرى في الاستوديو لتساقط الثلوج إشارة إلى فصل الشتاء، ودلالة على برودة القلوب وخوفها من فكرة الاسترقاق وبيع الإنسان للإنسان.

لم تكن الصورة ثابتة في هذا الفيلم، بل اهتزت عدة مرات، وذلك لعدم التمكن من تثبيتها آنذاك، وقد ظهرت بعض الارتجاجات في الصورة من بداية الفيلم إلى نهايته، وخاصة في الفواصل الموجودة بين المشاهد، ومرجع ذلك إلى عدم التحكم في آلية تثبيت وسائل التصوير السينمائي، خصوصا أن الكادر كان مفتوحا بزاوية منفرجة. لقد كان الممثلون يدخلون إلى الكادر، ويخرجون منه كمثيلة في الركح المسرحي، وشابهت اللقطات الطويلة والجماعية اللوحات المسرحية كثيرا، هذا رغم اجتهد إدوين بورتر في تقليص زمن المشاهد وتطوير اللقطة في محاولة لتجسيد اللغة السينمائية تقنيا.

إن فيلم كوخ العم توم أعطى للتقنية السينمائية دفعا نحو الانتقال من المكتوب (الرواية) إلى المصور (الفيلم) عبر سرد صوري يروي معاناة الرجل الأسود، والذي أظهره بورتر -الرجل الأسود- في جسد رجل أبيض لونت بشرته بالسواد، وتوالت الصور في جومليء بالمغامرة والمطاردة خاصة في المشاهد الأولى للفيلم عند هروب إليزا وابنها. إن بورتر طور من خلال هذا الفيلم تكنيك السرد الصوري في مرحلة

سبقت نطق السينما، فالقارئ لرواية هرييت بتشر-ستو آنذاك كان يتلقى الفيلم في شبه موجز لوثيقة بصرية توثق لفكرة الاسترقاق التي صيغت قبل في عالم كلي. إن توظيف بورتر للبعد الدرامي من جهة أخرى أعطى للفيلم بعدا مسرحيا في فترة ما يعرف بسينما جذب الانتباه، وظهر ذلك جليا من خلال تجسيد الأدوار من طرف الممثلين الذين كانوا يمتلكون طاقات تمثيلية عالية المستوى، لكنها قاربت التمثيل المسرحي. ولأن السينما لم تكن قد نطقت بعد فإن حركات الممثلين وإيماءاتهم كانت الطريقة الوحيدة لتمير فكرة الفيلم، فالمشاهد لهذا العمل السينمائي يلمس التعامل المحكم مع التشكيل الحركي ورقصات الزنوج -حتى وإن كانت تلك الرقصات لا تخدم الحدث السينمائي- لكنها أعطت نوعا من الجمالية البصرية التي ستتحول فيما بعد إلى عصر كامل من أفلام الكوميديات الموسيقية. اختزل هذا الفيلم الزمن الروائي بزمن صوري لا يتعدى 20 دقيقة، تجسدت في 14 مشهدا، لا يخلو من مجاورته للفن الرابع (المسرحية)، إذ إن الزمنية السردية للفيلم توضحّت من خلال ترتيب اللقطات داخل مجموعة من المشاهد التي تضمنت استمرارية زمنية شملت هروب إيزا، وسفر العم توم من كوخه إلى بيت سانت كليز حتى شرائه من ليغري في المزاد المخصص للعبيد. ونهاية تم توظيف استرجاع صوري (flash-back) سرع وتيرة السرد الدرامي (الصوري) في المشهد الأخير من الفيلم.

انطلاقا من "أفلمة" هذه الرواية، يكون بورتر قد طور، عبر هذا الفيلم، تقنية السرد السينمائي، كما أنه أظهر فعلا دور ومفهوم المخرج السينمائي من خلال تقسيم الفيلم إلى مشاهد (des séquences)، وتقسيم المشاهد إلى لقطات طويلة وجماعية، ضف إلى ذلك التنوع المكاني رغم تصوير الفيلم في أستوديو، ووضع ديكور مسرحي أعطى أجواء توحى بتعدد الأمكنة من ديكورات متعددة. وعموما تشكل هذه التجربة السينمائية المتفردة وقتها، نقلة نوعية من الروائي إلى

السينمائي عبر وضع حجر الأساس لما سيأتي بعده من أفلمة للروايات في السينما الأمريكية ونظيرتها العالمية.

المصادر والمراجع:

1. إدوارد كامبيل: هوليوود و أسطورة الجنوب الأمريكي، تر: زياد ينم، منشورات وزارة الثقافة- المؤسسة العامة للسينما، دمشق، 2003.
 2. بيتر هاي: موجز تاريخ الأدب الأمريكي، تر: هيثم علي حجازي، دار الميسرة للنشر و التوزيع و الطباعة، ط1، الأردن 2003.
 3. هاريت بيتشر- ستو: كوخ العم توم أو حياة المعذنين على الأرض، ترجمة ومراجعة النص العربي: د سليم خليل قهوجي، دار الحيل، ط2، بيروت 2005.
- فيلم كوخ العم توم، إدوين بورتر. 1903.

